المقال الخامس عشر

تأملات عربية فى الأولمبياد الأمريكية *

● من صحائف التاريخ

تقودنى الصدفة مقرونة بما لدى من شغف حاد منذ الصبا بالألعاب الرياضية إلى متابعة أحداث الدورة الأولمبية الخامسة والعشرين على شاشة التلفزيون الأمريكى أثناء زيارتى للولايات المتحدة صيف هذا العام . ولما كان قد انقضى على بدء تنظيم الأولمبياد الحديث مائة عام ، فقد صحب انعقاد هذه الدورة صخب منقطع النظير من الدعاية والإعلام والإعلان ، وما ارتبط بذلك من « أفعل التفضيل » التى يستأثر بها العقل الأمريكى فى ذكر كل ما تحقق للدورة من أحسن التنظيم وأكثر الدول المشاركة وأرفع مستويات المتنافسين .

ولعله من المفيد أن نُذكِّر القارىء بأن الألعاب الأولمبية قد بدأ

(*) مقال نشر فى أواخر عام ١٩٩٦ ، تعليقاً على ملاحظة الكتاب انتهاز إسرائيل المناسبة للتعاطف العالمى مع احتلالها الاستيطانى .

تنظيمها فى مدينة أولمبيا ببلاد الإغريق منذ عام ٧٧٦ ق . م حين تنادت المدن الإغريقية المتنافسة على الزعامة إلى إيجاد فترة من الزمن تضع فيه سلاح الحرب ، وتعقد حلبة للتنافس فى البطولات الرياضية . وقد استمرت تلك الدورات الإغريقية تنعقد كل أربع سنوات حتى مطلع القرن الخامس قبل الميلاد، حين أصبحت المدن اليونانية جزءا من الإمبراطورية الرومانية . وتعطل انعقادها، حتى تم إحياؤها من جديد عام ١٨٩٦ مع بداية ظهور القوميات الحديثة ونزعات التنافس على المستوى الوطنى .

وليس من مقاصدى فى هذا المقال أن أصف ما كان يجرى من أحداث أولمبية فيما قبل الميلاد وما تحكيه وثائق التاريخ من المفارقة بين أهدافها المثالية فى السلام والوئام والتنافس الشريف ، إذ تؤكد تلك الوثائق ما اصطبغت به من الألوان السياسية والتجارية والعنف ، والذى ما يزال يلوث مجرياتها حتى فى طابع الدورات الحديث . وعلى سبيل المثال . . كان يمارس المتنافسون القدامى الرياضة وهم عراة ، اعتزازاً بأجسامهم، وتميزاً لهم عن الرقيق والبرابرة غير الأحرار من سكان المدن ممن كانوا يحرصون على التدثر بالملابس ، شعورًا باحتقارهم لأجسامهم . وكان كسر الأصابع والضلوع وخنق الرقاب من المسموح به من أجل كسب النزال فى المصارعة والملاكمة . والمنتصرون مفخرة « وطنية » لمدنهم، إذ يرفعون إلى مقامات تقترب من تكريم الآلهة ؛ فتقام لهم تماثيل بالحجم الطبيعى فى مدينة أولمبيا، وفى مدنهم الأصلية ، أما المنهزمون ،فكان

نصيبهم الخزى والعار ، لا يصافح أى منهم منتصراً ، بل يعودون إلى ديارهم فى جنح الظلام ـ وعلى ما يسمى بالروح الرياضية السلام ، وأى سلام !! .

ومما يستحق الإشارة العابرة . . حرمان النساء من المشاركة أو المنافسة فى أى من الألعاب الرياضية ، بل كان محظوراً عليهن حتى مجرد المجىء إلى الساحة الأولمبية للمشاهدة ومجرد الفرجة ، ومن يعثر عليها هناك تتعرض لأقسى العقوبات البدنية ؟ وهل يترك هذا الحظر فى ذهنك أيها القارىء تداعيات فى واقعنا العربى ؟ ! .

● أولمبياد أتلانتا الأمريكى

تدعونى تلك المقدمة التاريخية إلى إدراك ما حدث من تطور فى تنظيم الأولمبياد خلال السنوات المائة الفائتة . لقد شهدت تغيرات هائلة من حيث عدد المسابقات وتنوعها وحجم المتنافسين وعدد الدول المشاركة ، وتنقل انعقادها بين مختلف الدول والعواصم ، فضلاً عن عدد الجمهور المشاهد والمشجع وأعداد الإعلاميين بمختلف أجهزتهم وقنواتهم .

ومما بهرنى فى أولمبياد أتلانتا ، ما سمعته من قصص التمرين المستمر والمثابرة الدءوبة خلال سنوات للمتنافسين ، وليس مجرد تدريب لبضعة أشهر، أو حتى لسنة استعداداً للمشاركة . أضف إلى ذلك . . مختلف الأساليب العلمية والتكنولوجية والأجهزة المستخدمة فى التمرين واكتساب اللياقة إلى جانب المهارة المتخصصة .

ولقد بهرنى كذلك مشاركة المرأة مشاركة بارزة وملحوظة فى كثير من الألعاب الرياضية . وتم إدخال مباريات كرة القدم النسائية لأول مرة كلعبة أولمبية . ولا أشك فى أن أى إنسان سوف يتملكه الانبهار وهو يرى الفتيات وهن يتنافسن فى السباحة أو فى ألعاب القوى ، أو فى الجمباز الإيقاعى، أو فى فرق السباحة المتناغمة . وأشهد أنى كنت أعجب أشد العجب بما منحهن الله من ثقة بالنفس ، وقوة فى الجسم، ورشاقة فى الحركة ، وكنت أتمتم قائلاً سبحان الذى خلق فسوى ، والذى فى أحسن صورة ماشاء ركب .

● المنغصات والتحيزات

لم يخل الإعلام التلفزيونى لأحداث الأولمبياد الأمريكى من منغصات ، منها اختلاط المشاهد الرياضية بالوقائع الإعلانية طوال الوقت ، مما أدى إلى التفكك والانقطاع فى تتبع المسابقات ، وأفقد المشاهد متعة المتابعة والاستمتاع بالتموجات الدرامية التى تتخلل المنافسات منذ البداية حتى النهاية . ويعزى هذا بطبيعة الحال إلى أن تمويل الدورة وتنظيمها قد تولته هيئات وشركات من القطاع الخاص ، وكان لا بد لها من استغلال هذه المناسبة للترويج لسلعها، وللربح مما يتم استهلاكه منها ومن أسعار تذاكر الدخول المرتفعة .

كذلك كان لتولى القطاع الخاص المسئولية الكاملة لتنظيم وإدارة هذه الدورة ظهور مشكلات تنظيمية فى المواصلات وفى الإقامة وفى التغذية . وقد أشار إلى مشكلات إدارة القطاع الخاص بمفرده بعض النقاد ، ورأوا

ضرورة مشاركة القطاع الحكومى (الولاية ، الحكومة الفيدرالية) فى مثل هذه المناسبات القومية . وممن أوصى بضرورة تلك المشاركة، السفير أندرو يونج، رئيس الوفد الأمريكى إلى الأمم المتحدة سابقا، ونائب رئيس اللجنة الوطنية المشرفة على الدورة .

وحين استمعت إلى ملاحظة السفير وانتقاده لانفراد القطاع الخاص بالتنظيم، وما ترتب على ذلك من مشكلات وقصور وشكاوى ، اصطدمت ملاحظته بما يدعيه البعض عندنا من القدرة المطلقة والآداء المحكم والعمل المنجز للقطاع الخاص ، مقارنة ببيروقراطية الدولة والقطاع العام . وهذه ملحوظة ينبغى الإلتفات إليها، تتردد فى أكبر دول نظام الرأسمالى الحر .

ومن بين التحيزات التى شاعت فى عرض الأحداث الرياضية على شاشة التلفزيون، بل وفى الصحف أيضا : الاقتصار فى معظم الحالات على إبراز الانتصارات الأمريكية فى المسابقات ، فضلاً عن الاقتصار على عرض مناسبات تقديم الميداليات الذهبية عليهم، وما يصحب ذلك من رفع العلم الأمريكى، وموسيقى النشيد الوطنى . ليس لنا اعتراض على ذلك البتة ، وإنما اتهامنا بالتحيز يكمن فى حرمان المشاهدين من وقائع المسابقات التى يحرز فيها أبطال من جنسيات أخرى الميداليات الذهبية ، وفى أحسن الحالات كان يتم العرض فى لمح البصر، أو بصورة إخبارية فحسب .

مثلاً إننا لم نسمع ولم نر مشهداً عن إحراز نور الدين مورسلى البطل الجزائرى الحائز على الميدالية الذهبية فى سباق ١٥٠٠ متر ، ولاعن غادة الشوا البطلة السورية الحائزة على الميدالية الذهبية فى سباعية ألعاب القوى . ثم ألم يستحق إعجاز فريق كرة القدم النيجيرى بإحرازه الميدالية الذهبية، نوعاً من العرض لمباراته الختامية، أو لمشهد حصوله على ميدالياته .

ومثل هذا التحيز ـ وليس مجرد الاعتزاز مع الاعتراف بالغير ـ قد دعانى إلى التأمل فى مقولة أننا نعيش فى قرية كونية ، تعاد فيها صياغة مفاهيم السيادة والوطنية والقومية والهوية ، وعلينا أن ننخرط فى حضارة النظام العالمى الجديد، ومحيطات الكوننة والعولمة ونهاية التاريخ ونهاية الجغرافيا ! .

● الصهيونية تنتهز الفرصة

تنفجر قنبلة الأنبوب فى قاعة القرية الأولمبية ، وتمتد عناصر الاتهام إلى مصادر داخل الولايات المتحدة من بين مواطنيها . ويستنكر العالم كله هذه الجريمة الإرهابية . وتتوالى الأحداث متلاحقة مسرعة فى انتهاز الحركة الصهيونية الأمريكية هذه الجريمة النكراء ، فلم تمض ساعة، حتى ألفيت على شاشة التلفزيون حواراً يقيم الشبه بين هذا الحدث وماحدث فى أولمبياد ميونخ، من مقتل مجموعة من رياضيى إسرائيل على يد فئة فدائية من الفلسطينيين . ونحن إذ نستنكر كل عمل إرهابى يوجه

إلى الأفراد ، إذ إنه لا يحل قضية، إلا أننا نستنكر كذلك البرنامج التلفزيونى الذى أقام الشبه التام بين الحادثين ، الإرهابيين ، فحادث أتلانتا إرهاب لا يفرق بين ضحاياه ، وليس له من هدف أو مبرر معروف، بينما إرهاب ميونخ جريمة سياسية لها رسالتها المحددة ، وضحاياه المقصودة .

ولم يأت اليوم الثانى بعد القنبلة إلا وشاهدنا حوارًا مع عمدة القدس مردداً جريمة ميونخ ، ورسوخها فى الحياة الإسرائيلية رسوح جرائم الهولوكست أيام نازية هتلر . ويؤكد العمدة المخاطر الأمنية التى تتعرض لها إسرائيل من إرهاب جيرانها من العرب .

وبعد أيام قلائل تظهر على الشاشة سيدة يهودية أمريكية اسمها رنبرج تتحدث عن إحرازها للميدالية الذهبية فى القفز الطويل ضمن الفريق الألمانى فى اولمبياد برلين عام ١٩٣٦ ؛ وقد أعجب هتلر بما أحرزته بيد أنها بررت الدافع إلى بطولتها التأكيد على تفوق الشعب اليهودى ونسائه ، وإلى ضرورة ضمان أمنه فى دولة إسرائيل . ثم إنها حاولت الهرب فجاءت إلى الولايات المتحدة دون أن تطالها يد الإبادة النازية للشعب اليهودى !!

وتتواتر الأحداث فى انتهاز المناسبة للضغوط الصهيونية ، ويشهد التلفزيون الأمريكى مجموعة من شباب اليهود من أبناء قتلى ميونخ فى اجتماع لذكرى ضحايا ذلك الحدث ، يعيبون على الدورات السابقة أنها لم تتذكر أولئك الضحايا ، ويطالبون بذلك فى ختام هذه الدورة .

ولم تذهب مطالبتهم سدى ، بل وجدت استجابة سريعة من رئيس اللجنة الأولمبية الدولية ، الذى لم يتردد فى كلمته فى الحفل الختامى من التنديد بالإرهاب بما حدث فى ميونخ على وجه الخصوص .

تلاحقت تلك المشاهد الصهيونية فى عقلى ووجدانى لتؤكد لى أن ذاكرة الصهاينة لا تنسى ، وأنها قادرة على توظيف الماضى ، بما يبرر للعالم مشروعية شعب الله المختار فى احتلال الأرض ، وتبرير عدوانهم ، وتزييف التاريخ ، واختزاله ، وإعادة تفسيره بما يعزز مصالحهم ، ومساندة العالم لدعاوى حقهم فى ارض الميعاد . يجرى هذا فى الوقت الذى يطالبنا فيه بعض من الحكام والمثقفين وأصحاب المصالح الفئوية بأن ننسى تاريخنا وسجل الفظائع والحروب التى سالت فيها دماء العرب فى صراعهم مع الإسرائيليين . ويتصايح البعض بأن علينا أن نتفهم الأمر الواقع وأن نتبنى ثقافة السلام مع « أبناء عمومتنا» كما تجرى الإشارة إلى بنى إسرائيل فى بعض المحافل الرسمية وغير الرسمية ، إذ لا فائدة من اختزان ذكريات الحروب التى أنهكتنا فى الصراع العربى الإسرائيلى ، أو فى تذكر مذابح لا حصر لها ، بدءا من دير ياسين ، إلى صبرا وشاتيلا وبحر البقر ، حتى مذابح قانا .

وخلاصة تأملى هى أنه مهما كانت مصائر عملية السلام ، فإن ذاكرة الأمة ينبغى أن تظل سلاحها فى معارك النضال من أجل التحرير وكرامة الأمة الوطن والمواطن ، وهى بصلتها الهادية إلى إقرار سلام عادل وشامل ودائم .